فى الأرض جاء بالتشريع من أول الخلق ، بل من قبل الخلق ؛ حتى يرتب للإنسان حياة سعيدة خالية من الشقاء. ولذلك شرع الدين ورتَّبَ أحكامه لينزل إلى البشر ؛ فيكون منهجاً لهم يحميهم من شرور قاسية قبل أن تقع.

وشاء الحق سبحانه أن يجعل « سورة براءة » فاضحة كاشفة للمنافقين ؛ لذلك كان من بين أسمائها : « السورة الحافرة » ؛ لأن المنافق ربما يستر كفره ، ويفضح الله هذا الكفر بأن يحفر عليه ليخرجه - ولله المثل الأعلى - فالإنسان يحفر الأرض ليكشف المخبوء فيها ، وهذه السورة ذكرت من صفات المنافقين الكثير.

فقد قال الحق : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي .. (٤٩) ﴾ [التوبة]

وقال عز وجل: ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ .. (٧٥) ﴾ [التوبة]

وقال سبحانه: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ ... (٥٨) ﴾ [التوبة]

ولذلك يسمونها " مَنَاهِم التوبة ". وهنا يبين الحق صورة جديدة للمنافقين وتصرفاتهم فيقول:

﴿ وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ ۚ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦١) ﴾

ونعلم أن الإيذاء لرسول الله ﷺ جاء بعد النبوة ، وكان بعض الكفار يقولون ما حكاه القرآن على ألسنتهم :

﴿ اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَـٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الأنفال]

وهذا دعاء مَنْ لا عقل له ، ولو كانوا يعقلون لقالوا : إن كان هذا الحق من عندك فَاهْدنا يارب إليه ، أو اجعلنا نؤمن به . ولكنهم من فَرْط حقدهم وضلالهم ، تمنَّوا العذاب على الإيمان بالحق . وهذا يكشف لنا تفاهة عقول الكفار .

وهنا يقول الحق سبحانه (١) :

﴿ وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ ﴾ والذين يؤذون رسول الله ﷺ هم السادة ، وهم أصحاب النفوذ الذين يخافون أن يذهب منهج هذا النبي بنفوذهم ؛ وثرواتهم ؛ وما أخذوه ظلماً من الضعفاء . والضعفاء - كما نعلم - هم أول من دخل إلى دين الإسلام ؛ لأنهم أحسوا أن هذا الدين يحميهم من بطش الأغنياء واستغلالهم ونفوذهم . وشاء الحق أن يبدل خوف الضعفاء قوة وأمناً ، وشاء سبحانه أن يضم إلى الإيمان عدداً من الأغنياء ؛ ومن رجال القمة مثل : أبي بكر الصديق ، وعثمان بن عفان ، وعمر بن الخطاب وغيرهم رضى الله عنهم أجمعين ، حتى لا يقول أقوياء قريش مثلما قال قوم نوح لنبيهم :

﴿ وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا ... ﴿٢٧﴾ ﴾ [هود]

(١) قال القرطبي في تفسيره (٣١١٧/٤) : « هذه الآية نزلت في عتاب بن قشير ، قال : إنما محمد أذن يقبل كل ما قيل له . وقيل : هو نبتل بن الحارث . قاله ابن إسحاق » .

وهكذا كان الإيذاء له ﷺ بعد الرسالة، أما قبل الرسالة فكان فى نظر الجميع هو: الأمين والصادق والمؤتمن.

ومن العجيب أنهم، بعد أن نزل الوحى، كانوا لا يستأمنون أحداً مثلما يستأمنون محمداً ﷺ. فإذا كان هناك شىء ثمين عند الكافرين المعارضين، ذهبوا إلى رسول الله ليحفظوا هذه الأشياء الثمينة عنده. وهذا التناقض لا يفسره إلا وثوقهم فى أخلاقه ﷺ. ورغم ذلك كانوا فى غيظ وكَمَد؛ لأن القرآن قد نزل عليه. والحق هو القائل ما جاء على ألسنتهم:

﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَـٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١)﴾

[الزخرف]

وهم بذلك قد اعترفوا بألسنتهم بعظمة القرآن، بعد أن اعترفوا بسلوكهم بأمانة محمد ﷺ، ولكنهم اعترضوا على اختيار الحق سبحانه له، وتمنوا لو كان هذا القرآن قد نزل على أحد عظمائهم (١). ورد الحق سبحانه عليهم:

﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا... (٣٢)﴾ [الزخرف]

وفى هذا دعوة لأن يتأدبوا مع الله سبحانه، فهو لم يوكلهم فى اختيار من ينزل عليه رحمته، ورسالته، ولكنه سبحانه هو الذى يختار. وهو الذى قسم بين العباد معيشتهم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة. وإذا كان لأحد نعمة من مال أو جاه أو مجد، أو غير ذلك، فهذا ليس من قدرات البشر أو من ذواتهم، ولكنه نعمة من الله.

(١) القريتان هنا: مكة والطائف. وقد اختلف العلماء فى تحديد الرجل العظيم المقصود. فمن مكة: الوليد بن المغيرة أو عتبة بن ربيعة. ومن الطائف: عروة بن مسعود أو عمير بن عبد ياليل. قال ابن كثير فى تفسيره (٤/ ١٢٧): «الظاهر أن مرادهم رجل كبير من أى البلدتين كان».

وهنا يقول الحق سبحانه : ﴿ وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ ﴾ إذن : فالإيذاء سببه أنه ﷺ جاء بدعوة الخير ، ولا يجىء رسول بدعوة الخير إلا إذا كان الشر قد عم المجتمع . وحين يعم الشر فى المجتمع فهناك مستفيدون منه ، فإذا أتى رسول الله بالخير أسرع جنود الشر ليؤذوا صاحب رسالة الخير ، إذن : فمن الطبيعى أن يكون للنبى أعداء .

والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ... (١١٢) ﴾ [الأنعام]

بل إن كل من يحمل من العلماء رسالة رسول الله ليبلغها إلى الأجيال التالية ، إن لم يكن له أعداء ، أنقص ذلك من حظه فى ميراث النبوة ، وكل من له أعداء ويقوم بهداية الناس إلى منهج الله ، نقول له : لا تنزعج ، واطمئن ؛ لأن معنى وجود من يعاديك ، أن فيك أثراً من آثار النبوة .

وتمثَّل إيذاء المنافقين له ﷺ فى عدة صور ؛ منها قولهم : ﴿ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ﴾ .

وللإنسان - كما نعلم - وسائل إدراك متعددة : فالأذن وسيلة إدراك ، والعين وسيلة إدراك ، والجوارح كلها وسائل إدراك . وكل إنسان له ملكات متعددة ، منها ملكات إدراكية وملكات نفسية ، والملكات الإدراكية هى التى يدرك بها الأشياء مثل : السمع والبصر والشم والذوق . أما الملكات النفسية فهذه يوصف بها الناس . وعلى سبيل المثال : نحن نسمى الجاسوس عيناً ؛ لأنه يتجسس وينقل ما يراه إلى غيره . ونسمى الرجل

الذى يسمع كل حدث « أُذُن » ، ونسمى اللص الذى يتعدَّى على مال غيره صاحب اليد الطويلة وهكذا.

إذن: كل جارحة لها حاسة ، والنظر والسمع والشم واللمس والذوق كلها من وسائل الإدراك الحسية التى تتكون منها الخمائر المعنوية ، ثم تصبح عقائد ، فوسائل الإدراك هذه تتلقى من العالم الحسى ما يعطيه لها من معلومات ، وتخزنها لتتصرف بعد ذلك على أساسها ، وتكون فى مجموعها هى ما يعلمه الإنسان ؛ ولذلك نجد الحق سبحانه يمتنُّ على خَلقه ، فيقول:

﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٨) ﴾ [النحل]

والشكر لا يكون إلا على النعمة ، فكأن وسائل الإدراك هذه مما تسمعه أو تراه ببصرك ، أو تدركه بفؤادك هى من نعم الله التى يجب أن نشكره عليها ؛ لأنها أعطتنا العلم الحسى بعد أن كنا لا نعلم شيئاً.

وإذا أطلقَ على الإنسان اسم جارحة من جوارحه ، فاعلم أن هذه الجارحة هَى العمدة فيه ، فكأن قول المنافقين وصفاً للرسول ﴿هُوَ أُذُنٌ ﴾ هو سَبٌّ للرسول ، وكان الواحد منهم يقول : احذروا أن يبلغ ذلك رسول الله ﷺ فيكشف نفاقكم ويؤذيكم ؛ لأن محمداً عليه الصلاة والسلام فى رأيهم يُصدِّق كل شىء . أرادوا أن يتهموه ﷺ أنه لا يمحص القول الذى يُنقل إليه ويصدق كل ما يقال له ، كما نقول نحن فى العامية « فلان ودِنى» أى : يعطى أذنه لكل ما يقال له.

فيرد عليهم الله :﴿قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ ﴾ ؛ لأنه ﷺ يستمع لمنهج السماء ويبلغه للبشر ليهدى أهل الأرض ، إذن: فهو خير للناس كلهم . وحتى إذا

أخذنا كلامهم فى أن رسول الله ﷺ يصدقهم إن كذبوا عليه ، فهذا خير لهم ؛ لأنه ﷺ لا يؤذيهم ، وهو ﷺ ﴿ أُذُنُ خَيْرٍ ﴾ لأنه لا يسمع إلا من الله بالوحى . ولذلك قلنا : إن الحكمة من أمية رسول الله عليه الصلاة والسلام ، أنه لم يستمع من مُسَاو له ، وإنما كان علمه من الله . فإذا كانت الأمية فينا نحن نقيصة ؛ فإنها الكمال كله فى حق رسول الله عليه الصلاة والسلام ؛ لأنه لم يأخذ إلا من خالقه ، وهو أذن خير ؛ لأنه الأذن التى استمعت إلى آخر إرسال ينزل من السماء لهداية الأرض .

فإذا كان المنافقون قد قالوا : (هُوَ أُذُنٌ) فقد قال سبحانه : ﴿ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ ﴾ ، وهو خير يعود نفعه على البشرية كلها ، ولكن ليس بالمعنى الذى تعيبونه عليه ، فهو قد يسمع إساءاتكم ، ثم يسمع اعتذاركم فلا يؤذيكم ويعفو عنكم .

وما دام هذا هو سلوك رسول الله ﷺ فلماذا تؤذونه وترهقونه ؟

وفى اللغة ما يسمونه "القول بالموجب" ، فإن قال لك واحد شيئاً تصدقه وتقول له : نعم ، ولكن قد تأخذها على مَحْمل آخر ، فإن كان هناك إنسان يُكثر الزيارة لإنسان ويقول له : أنا أثقلتُ عليك ، ويرد عليه : أنت أثقلتَ كاهلى [1] بأياديك ، أى أن أفضالك علىَّ كثيرة . وإن قال لك واحد : "أنا طولت عليك" ، يرد عليه صديقه : لا ، أنت تطولت علىَّ ، أى : أعطيتنى نعمة بأنك أسعدتنى بمجلسك . إذن : فهو قد وافقه على ما قال ، ولكنه رد عليه بعكس ما قال .

وهم قد عابوا على الرسول أنه أذن ، فكأن أذنه تتحكم فى كل تصرفاته ، وإن سمع شيئاً تأثر به . وإن سمع شيئاً ينغصه ينقلب موقفه من

(١) الكاهل : هو ما بين كتفى الإنسان .

النقيض إلى النقيض . وحاولوا أن يدَّعوا عليه أنه يصدق كل ما يسمعه ولا يحتاط تجاه من يبلغه ، وقالوا : إنه ﷺ ﴿ أُذُنٌ ﴾ ، وردَّ الحق سبحانه ﴿ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ ﴾ وبطبيعة الحال لم يكن قول الحق موافقاً لما قالوه ؛ لأن "أُذُن" عندهم غير ﴿ أُذُن ﴾ التي أقرها الله سبحانه وتعالى .

وقد يقول بعض السطحيين : إن المنافقين قالوا عن رسول الله ﷺ ﴿ هُوَ أُذُنٌ ﴾ وهم يقصدون بذلك أنه يسمع ويصدق كل ما يقال له ، وليس له حكمة التمحيص والاختيار . لكن لنلتفت إلى أن الحق قد قال : ﴿ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ ﴾ ؛ لأن رسول الله ﷺ لا يسمع إلا من الله ، وما يسمعه من الله أطاعه وطَّبقه ، وما سمعه من الناس؛ عرضه على منهج الله ؛ فإن وافق المنهج نفذه ، وإن تعارض مع المنهج رفضه . إذن : فهو أذن للخير لا يسمع إلا من الله ، ولا يأتي من رسالته إلا الخير لمن اتبعه .

ولكن لماذا لم يقل الحق سبحانه وتعالى : أذن خير للمؤمنين ، وقال : ﴿ أُذُن خَيْرٍ لَكُمْ ﴾ ؟ ؛ لأن خيرية رسول الله قد شملت الجميع ، وتعدَّتْ المؤمنين إلى المنافقين وإلى الكفار . فكان رسول الله ﷺ لايفضح منافقاً ، إلا إذا فضح الله المنافق بقرآن نزل من السماء .

وعلى سبيل المثال : كان المنافقون يأتون إلى الرسول ﷺ ، ويعتذرون عن الجهاد فى سبيل الله ؛ ويطلبون الإذن بالقعود . وكان رسول الله ﷺ يعطيهم الإذن . وحين كان المنافقون يأتون إلى الرسول الكريم ويحلفون له كذباً ، كان يصدقهم ، أو على الأرجح لا يفضح كذبهم أمام الناس .

إذن : فالخيرية فيه عليه الصلاة والسلام شملت المنافقين ؛ لأن خُلُقَه الكريم أبى أن يفضحهم أمام الناس . أما الكفار فقد شملتهم الخيرية أيضاً ؛

لأن دعوته لهم إلى الإسلام ، وإصراره ﷺ على هذه الدعوة ، جعل عدداً من الكفار يسلم ويؤمن ، وأصابهم خير عميم من اهتدائهم لدين الحق . إذن : فقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ﴾ أي : للبشرية كلها .

وهكذا فرق الحق سبحانه وتعالى بين ما يريدونه ، وما يقصده الله جل جلاله . هم قصدوا وصف الرسول أنه أذن سَمَّاعة . والله يقول : إنها أذن خير ؛ وهذا ما يسمونه في اللغة - كما قلنا - : " بالقول الموجب" ، أي : أن تتفق مع خصمك فيما قاله ، إلا أنك تحول ما قاله من الشر إلى الخير . والمثال أيضاً فيما يقوله الحق سبحانه وتعالى على ألسنة المنافقين حين قالوا :

﴿لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ .. ⑧﴾ [المنافقون]

كانوا يقصدون أنهم هم الأعز ، أما الأذل فهم المؤمنون . ووافقهم الحق سبحانه وتعالى على ما قالوا ؛ نعم سيُخرج منها الأعزُّ الأذلَّ . ولكنه أراد أن يبين لهم من هو العزيز ومن هو الذليل ؛ فقال :

﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ... ⑧﴾ [المنافقون]

فكأن الحق سبحانه وتعالى يؤكد لهم أن الأعز سيُخرج الأذل ، ولكنهم يحسبون أنفسهم هم الأعزاء ؛ فيقول لهم : ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ . هذا ما يسمونه بالقول الموجب ، أي : أن تتفق مع من يقول ، ويقصد أن يوجه كلامه وجهة الشر ؛ فتقلب المقصود من الكلام وتوجهه وجهة الخير . وهذا مقصود به هنا أن تزيد من ذلة المخاطب ، فأنت تجعله يعتقد أنك توافقه ، فتنفرج أساريره ويشعر بالسعادة ؛ ثم بعد ذلك تنقض ما قاله ؛ فيصاب بالذل . تماماً كما يأتي الحارس لسجين يشعر

بظمأ شديد ويُلِحُّ فى طلب كوب ماء . فيقول له الحارس : سأحضر لك كوب الماء. وفعلاً يحضر الكوب مليئاً بالماء المثلج ، ويفرح السجين ويظن أنه سينال ما يريده ، ولكن ما إن يقرب الحارس الكوب من فم السجين ، حتى يفرغه على الأرض ، فيكون تعذيبه أكبر مما لو رفض منذ البداية إحضار كوب الماء.

وهكذا شاء الحق سبحانه وتعالى أن يزيد ذلة المنافقين ، فوافقهم على أن رسول الله ﷺ **"أُذُن"** ثم جاء بنقيض ما كانوا يقصدونه فقال :

﴿ **أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ** ﴾ وما دام ﷺ يؤمن بالله فهو يأخذ منهجه من الله سبحانه وتعالى ، ويؤمن للمؤمنين ورحمة للذين آمنوا منكم.

إذن: فهناك ثلاثة أدلة على خيرية رسول الله ﷺ : أنه يؤمن بالله وينفذ منهجه. ثم يؤمن للمؤمنين ورحمة للذين آمنوا. ونلاحظ أن هناك اختلافاً بين قوله تعالى : ﴿ **يُؤْمِنُ بِاللَّهِ** ﴾ وبين قوله عز وجل :﴿ **وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ** ﴾. فبالنسبة للإيمان بالله جاء بالباء فى قوله : ﴿ **بِاللَّهِ** ﴾ وبالنسبة للمؤمنين جاء باللام فى قوله : ﴿ **لِلْمُؤْمِنِينَ** ﴾.

بعض الناس يقولون : إن هذه مترادفات ؛ لأن معنى ﴿ **يُؤْمِنُ بِاللَّهِ** ﴾ أى : يصدق بوجوده. والمنافقون كفرة بالله ، ﴿ **وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ** ﴾ معناها أنه ﷺ يصدق المؤمنين. أما المنافقون فهو ﷺ يعرف أنهم كاذبون فلا يصدقهم . ولكنه لا يفضحهم أمام المؤمنين ؛ حتى لا يقطع عليهم خط الرجعة إن كانوا ينوون الإيمان فعلاً .

ولو فضحهم ﷺ أمام المؤمنين لضاعت هيبتهم تماماً . وإن فكر أحدهم فى ترك النفاق إلى الإيمان ، لوجد صعوبة شديدة فى ذلك ؛ لأن أحداً لن

يصدقه . ولكن أراد ﷺ أن يسترهم أمام المؤمنين ؛ فجعل باب الإيمان مفتوحاً على مصراعيه ؛ لأنه ﷺ إنما جاء رحمة للعالمين ، ولذلك فهو يحرص على أن يبقى باب التوبة وباب الإيمان أمامهم مفتوحاً دائماً مع حفظ كرامتهم .

قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أى : يصدقهم ، وكلمة الإيمان بالنسبة للناس جاءت فى آيات كثيرة ، منها قوله تعالى حين أعلن السحرة إيمانهم برب موسى وسجدوا ؛ قال لهم فرعون :

﴿ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِى عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ .. (٧١) ﴾ [طه]

ومعنى ﴿ آمَنتُمْ لَهُ ﴾ أى : صدَّقتموه ، ولكن ما هو الفرق بين الباء واللام ؟ أنت حين تقول : آمنا بالله . فأنت تعلن أنك قد آمنت بالذات بكل صفات الكمال فيها، وحين تقول : آمنت للمؤمنين فيما قالوه ، أى صدقتهم لأنهم مؤمنون.

ومادة "آمن" تدور كلها حول الأمن والطمأنينة ، ولكنها تأتى مرة لازمة ومرة متعدية. مثلما تقول : "آمنت الطريق" أى : اطمأننت إلى أنه لن يصيبنى فيه شر . ومنها قول يعقوب عليه السلام لبنيه :

﴿ قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلاَّ كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ ... (٦٤) ﴾ [يوسف]

أى : أن السابقة هنا أنه آمنهم على يوسف فلم يرعوا الأمانة ، فصار لا يأمنهم على أخى يوسف ، وهذه آمن اللازمة . أما المتعدية فهى التى يتعدد فيها الأمن ، مثل قوله تعالى :

﴿ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ... (٤) ﴾ [قريش]

والخوف متعدد فى أشكاله ، فهناك مثلاً خوف من الظلام ، وخوف من العدو ، وخوف من مخاطر الطريق ، إذن : فالأمن هنا شمل أشياء متعددة وقد أدخلهم الحق سبحانه فى الأمان والطمأنينة من أشياء متعددة.

وقوله تعالى : ﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾ هو إيمان بالذات ، وإيمان بالصفات ، وإيمان بالمنهج ، وإيمان يسع أمة رسول الله ﷺ كلها ، فكأن الإيمان هنا قد تعددت جوانبه . أما الإيمان للمؤمنين فهو تصديق لهم وهذا هو الخير الثانى. وقوله سبحانه ﴿وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا﴾ ؛ لأنه ﷺ شفيع لهم يوم القيامة ، وقال : "أمتى أمتى". [1] وهو رحمة لهم فى الدنيا ؛ لأنه يقودهم إلى الخير الذى يقودهم إلى سعادة الدنيا ثم إلى جنة الآخرة ، ويبعدهم عن الشر والنار ؛ فهو ﷺ رحمة تدفع الضرر وتأتى بالخير ، والرحمة إنما تأتى باتقاء الضرر.

والله سبحانه وتعالى يقول :

﴿شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ .. (٨٢)﴾ [الإسراء]

الشفاء يعنى أن يكون هناك مرض ويشفى الإنسان منه ، والرحمة ألا يأتى المرض ، فكأن رسول الله ﷺ يبشر بمنهج إذا اتبعه الناس وآمنوا به ؛ كان لهم وقاية فلا يصيبهم شر فى الدنيا ولا نار فى الآخرة .

ويتساءل بعض الناس : لقد قال الحق سبحانه وتعالى : ﴿وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ﴾ والمنافقون قد آمنوا بألسنتهم فقط فما موقفهم ؟ نقول : إن الرسول عليه الصلاة والسلام ؛ لأنه رحمة فقد احترم كلمة اللسان وصدقهم أمام الناس ، أما الحق سبحانه فينزلهم فى جهنم .

(١) حديث الشفاعة حديث طويل أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٧١٢) ومسلم فى صحيحه (١٩٤) من حديث أبى هريرة أنه ﷺ يأتى تحت العرش فيقع ساجداً ثم يفتح الله عليه من محامده وحسن الثناء عليه شيئاً لم يفتحه على أحد قبله . ثم يقال : يا محمد . ارفع رأسك ، سل تعطه واشفع تشفع ، فأرفع رأسى فأقول : يارب أمتى أمتى .

ثم يقول سبحانه وتعالى :

﴿ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ .

وإيذاء المنافقين لرسول الله ﷺ لم يكن بالمواجهة ؛ لأنهم أعلنوا كلمة الإيمان ، وكان الإيذاء لرسول الله ﷺ من المنافقين فى قلوبهم وفيما بينهم فى مجالسهم ، ولذلك لم يكن الإيذاء منهم مباشرة قط ، ولكن الآيات بينت أنواع الإيذاء بأنهم يلمزون فى الصدقات ، ويقولون : إنه أُذُنٌ ، ويحلفون له كذباً ليضللوه ، إلى آخر ما كانوا يفعلون .

ثم يأتى الحق بصورة أخرى من صور المنافقين فيقول سبحانه :

﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ ﴾

ومن العجيب أن سورة التوبة فيها أكبر عدد من لفظ "يحلفون" ، ولم ترد مادة "يحلف" فى سورة المائدة إلا مرة واحدة ، وفى سورة النساء مرة ، وفى سورة المجادلة ثلاث مرات ، أما فى سورة التوبة فقد جاءت سبع مرات ، وفى سورة القلم جاءت "حلاف" ، حتى إن سورة التوبة سميت "سورة يحلف" [1] ؛ لأن فيها أكبر عدد من ﴿ يَحْلِفُونَ ﴾ فى القرآن الكريم .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ ﴾ وفى هذا إصرار من المنافقين على الحلف كذباً ، وهو ما يوضح غباءهم وعدم فطنتهم .

---

(١) هذه السورة لها أسماء كثيرة فهى : براءة ، والتوبة ، والفاضحة ، والحافرة ، لأنها حفرت عن قلوب المنافقين . وقال حذيفة : هى سورة العذاب . وقال ابن عمر : كنا ندعوها المُشَقْشِقة . وقال الحارث بن يزيد : كانت تدعى المبعثرة ، ويقال لها : المسورة ، ويقال لها : البَحُوث ؛ لأنها تبحث عن أسرار المنافقين . انظر : البرهان فى علوم القرآن للزركشى (١/ ٢٦٩) .

وأيضاً يقول الحق :

﴿ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ ... (٩٥) ﴾ [التوبة]

واستخدام الحق سبحانه وتعالى حرف السين معناه أنهم لم يحلفوا بعد ، ولكنهم سيحلفون بعد فترة ،أى فى المستقبل ، أى : أن الآية الكريمة نزلت ولم يحلفوا بعد ، إنما هم سيحلفون بعد نزول الآية الكريمة ، ولو كان عندهم ذرة من ذكاء ما حلفوا ، ولقالوا : إن القرآن قال سنحلف ولكننا لم نحلف . ولكنهم ورغم نزول الآية جاءوا مصدقين للقرآن مثبتين للإيمان وحلفوا . وكلمة "حلف" هى القسم أو اليمين . وحين نتمعن فى القرآن نجد أن الحلف لا يطلق إلا على اليمين الكاذبة ، أما القسم فإنه يطلق على اليمين الصادقة واليمين الكاذبة . فمثلاً عندما نقرأ فى سورة المائدة :

﴿ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ... (٨٩) ﴾ [المائدة]

وما دامت هناك كفارة يمين ؛ يكون الحلف كذباً ؛ لأن الذى يستوجب الكفارة هو الكذب . وإذا استعرضنا بعد ذلك كل "**حلف**" فى القرآن نجد أنه يقصد بها اليمين الكاذبة ؛ ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَلا تُطِعْ كُلَّ حَلافٍ مَّهِينٍ (١٠) ﴾ [القلم]

فالحلف هنا مقصود به القسم الكاذب . ولكن إذا قال الحق سبحانه وتعالى ﴿ أَقْسَمُوا ﴾ فقد يكون اليمين صادقاً ، وقد يكون كاذباً .

والحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ ﴾ أى : أن هدف الحلف كذباً هو إرضاء المؤمنين حتى يطمئنوا للمنافقين ولا يتوقعوا منهم الشر ، ثم يأتى الحق سبحانه وتعالى بالحقيقة : ﴿ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ ﴾ إذن : فهم يحلفون لترضَوْا أنتم عنهم ، أما المؤمن الحق فهو

لا يقسم إلا ليرضى الله ؛ لأن الإنسان قد يخدع البشر ، وقد يفلت من عدالة الأرض ، ولكنك لا تخدع الله ولا تفلت من عدالته أبداً .

ومن مهام الإيمان أن الإنسان يرعى الله فى كل معاملة له مع البشر ؛ ويبتغى رضاه ويخاف من غضبه ، ذلك هو المؤمن الحق.

وهنا نلاحظ أن الحق سبحانه وتعالى قال : ﴿ **وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ** ﴾ وكان القياس اللغوى على حسب كلام البشر أن يقول: والله ورسوله أحق أن ترضوهما. وشاء الحق أن يأتى بها ﴿ **وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ** ﴾ ؛ لأن رضا الله ورضا رسوله هو رضا واحد ؛ لأن الرسول ﷺ لا يأتى بالقرآن من عنده ، ولكنه وحى من عند الله . وإرضاء الرسول هو اتباع المنهج الذى فيه رضا الله . لذلك يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ** ... (١٠) ﴾ [الفتح]

ويقول سبحانه:

﴿ **قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ** ... (٣١) ﴾ [آل عمران]

ويقول سبحانه:

﴿ **مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ** ... (٨٠) ﴾ [النساء]

إذن: فلا توجد طاعة لله وطاعة للرسول ، ولا رضا لله ورضا للرسول ؛ لأن الرضا منهما رضا واحد.

إذن: فقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ **وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ** ﴾ دليل على اتحاد الرضا من الله ومن رسوله ، فما يُرضى الله يُرضى الرسول ﷺ ، وما يُغضب الله يُغضب الرسول [1].

(١) وقد جاء هذا فى حديث متفق عليه عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال « من أطاعنى فقد أطاع الله ، ومن عصانى فقد عصى الله » أخرجه البخارى (٧١٣٧) ومسلم (١٨٣٥) .

أو : أن الحق سبحانه وتعالى يريدنا أن نتأدب مع ذاته ، فى أنه إذا اجتمع أمران لله ولرسوله لا نجعل أحداً مع الله ، وإنما نجعله له سبحانه وهو الواحد . ولذلك فعندما ارتكب رجل ذنباً ، وقالوا له : أعلن توبتك أمام رسول الله ، قال الرجل : إنى أتوب إلى الله ولا أتوب إلى محمد . فقال له رسول الله : « وقعت على الخير »[1] . انظر إلى عظمة الرسول الكريم الذى يثنى على رجل يقول أمامه : إنى لا أتوب إلى محمد، وإنما أتوب إلى الله.

وقول الحق سبحانه : ﴿ إن كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ أى : إن كان إيمانهم حقيقة ، وليس نفاقاً .

إذن : فنحن لا نطلب الرضا من خلق الله ، ولكن نطلبه من الله . ورضا الله سبحانه وتعالى ورضا المبلِّغ عنه رسوله ﷺ رضا واحد . ولذلك وحَّد الضمير ﴿ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ ﴾ ولم يقل يرضوهما[2] .

ثم يقول الحق بعد ذلك :

﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَٰلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾ ﴾

(١) عن الأسود بن سريع أن النبى ﷺ أتى بأسير فقال : اللهم إنى أتوب إليك ولا أتوب إلى محمد . فقال النبى ﷺ : « عرف الحق لأهله » أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٣/ ٤٣٥) قال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ١٩٩) « وفيه محمد بن مصعب وثقه أحمد وضعفه غيره وبقية رجاله رجال الصحيح» وقد ضعف الحافظ العراقى إسناد هذا الحديث فى تخريجه للإحياء (١/ ٢٢٠) .

(٢) لأهل اللغة هنا تقديرات كثيرة لتوجيه إفراد الضمير هنا ، ذكر منها القرطبى ثلاثة تقديرات ثم قال : « وقيل : إن الله سبحانه جعل رضاه فى رضاه ، ألا ترى أنه قال ﴿ مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ .. ﴾ [النساء : ٨٠] . وكان الربيع بن خيثم إذا مر بهذه الآية وقف ، ثم يقول : حرف وأيما حرف . فوِّض إليه فلا يأمرنا إلا بخير » . انظر تفسير القرطبى (٤/ ٣١١٩) .

إذا سمعت ﴿ أَلَمْ ﴾ ، فافهم أن هذا استنكار ، كأن وسائل العلم قد تقدمت ، وكان من الواجب أن تعلم . فإذا قلت لإنسان : ألم تعلم أنه حدث كذا وكذا ؟ فمعنى ذلك أنه قد أعلن عن هذا الحادث عدة مرات ، ومع ذلك لم يعلمه . وهذا استنكار لتخلُّف هذا الإنسان عن العلم.

وهنا يستنكر الحق عدم علم المنافقين بقضية أعلنها الله مرات ومرات ، وكان يجب أن يعلموها وألا تزول عن خواطرهم أبداً. وسبق أن قلنا: إن الاستفهام فيه نفي ، والهمزة همزة استفهام. ولم تأت للنفى ، وإذا دخلت همزة الاستفهام على النفى يكون استنكاراً . فإن قلت لإنسان : ألم أكرمك ؟ كأنك أكرمته عدة مرات وهو مُنكر لذلك.

وقول الحق سبحانه وتعالى ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا ﴾ هو إقامة للحجة على أن الحكم قد بلغهم ؛ لأنه من الجائز أن يقولوا : إن الحكم لم يبلغنا ، فيوضح لهم الحق : بل بلغكم الحكم وقد أعلمتكم به عدة مرات.

﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللَّهَ ﴾ ما معنى يحادد ؟ نجد فى الريف أن أهل الريف يضعون علامات من الحديد تفصل بين قطعة أرض وأخرى مجاورة لها ، كعلامة على الشيء الذى يفصل بين حق وحق ويسمونها حداً ، والذين يحادون الله هم الذين يجعلون الله فى جانب وهم فى جانب ، وبذلك لا يعيشون فى معية الله ولا ينعمون بنعمة الإيمان به سبحانه ولا يطبقون منهجه. بل يجعلون حداً بينهم وبين ما أمر به الله .

وعندما أراد العلماء تفسير هذه الآية قالوا :﴿ يُحَادِدِ ﴾ تعنى : يعادى ، وقالوا : بمعنى يشاقق ؛ أى : يجعل نفسه فى شق والله ورسوله ودينه فى شق آخر . أو : يحارب دين الله فيكون هو فى وجهة ودين الله

فى وجهة أخرى[(١)] . وهناك علاقة بين كلمة "يحارب" وكلمة "حد" ، فحدُّ السيف هو الجزء القاطع منه الذى يفصل أى شىء يقطعه إلى جزءين ، فكأن الذى يحادد هو من يحارب منهج الله ورسوله . فهو لا يكفر بالله فقط ، ولكنه يحمل السلاح ليجعل خلق الله يكفرون أيضاً .

والحق سبحانه وتعالى يريد من المؤمنين أن يكونوا دائماً فى جانب الإيمان ، وألا يقيموا حداً بينهم وبين الإيمان به . والأحكام الشرعية تسمى حدوداً ، أى : أن كل حكم قد وضع ليحدد حداً من حدود الله ، تحفظ به الحقوق والأوامر .

ومنهج الله إما أن يكون أوامر ، وإما أن يكون نواهى ؛ لأن منهج الدين كله فى "افعل" و "لاتفعل" ، ويضع الحق سبحانه وتعالى عقاباً لمن يتعدى حدوده سبحانه ، فيقول سبحانه :

﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَقْرَبُوهَا ...(١٨٧) ﴾ [البقرة]

ويقول :

﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَعْتَدُوهَا ... (٢٢٩) ﴾ [البقرة]

ويسأل بعض الناس : ما الفرق بين اللفظين ﴿ تَعْتَدُوهَا ﴾ و﴿ تَقْرَبُوهَا ﴾ . ونقول : إذا كانت هناك أوامر فلا تتعد الأمر ، وإذا كانت هناك نواه فلا تقترب من المنهى عنه .

ونلحظ أن الحق سبحانه وتعالى حين نهى آدم وحواء عن الأكل من الشجرة المحرمة لم يقل : لا تأكلا من الشجرة ، بل قال :

﴿ فَكُلا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ ... (١٩) ﴾ [الأعراف]

(١) وقد جمع ابن كثير هذه المعانى كلها فى تفسيره للآية فقال : « أى شاقه وحاربه وخالفه وكان فى حد والله ورسوله فى حد » . انظر تفسير ابن كثير (٢/ ٣٦٦) .

وبذلك أباح سبحانه الأكل من كل ثمار الجنة ، ولكنه أمر ﴿ وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ الشَّجَرَةَ ﴾ لأن القرب من هذه الشجرة إغراء بالمعصية ؛ فقد يعجبهما منظر الثمرة . وقد تغريهما رائحتها ، وقد يفتنهما لونها . ولكن عندما لا يقتربان من هذه المغريات كلها فهما يحميان نفسيهما من المعصية .

وعندما تكلم الحق سبحانه وتعالى عن الخمر قال :

﴿ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ ... (٩٠) ﴾ [المائدة]

والحق لم يقل : لا تشربوا الخمر ، ولكن أمر باجتناب الخمر ، أى : لا نقرب أى مكان فيه خمر [1] ؛ لأن وجود الإنسان فى مكان فيه خمر قد يوحى إليه بتناولها . وقد يجد من الجالسين من يحاول إغراء من لا يشرب بأن يتناول ولو جرعة . إذن : فالحق سبحانه يريد أن يقى النفس المؤمنة من أن تغرى بالمعصية فتقع فيها .

ويقول سبحانه فى أدب الاعتكاف :

﴿ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ .. (١٨٧) ﴾ [البقرة]

المنهى عنه هنا هو المباشرة ، أى : إن تواجدت الزوجة مع زوجها فى المسجد ، فليس فى هذا الأمر معصية شرط ألا يباشرها الزوج [2] ، ثم

(١) وعن ابن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : « لعن الله الخمر وشاربها وساقيها وبائعها ومبتاعها وعاصرها ومعتصرها وحاملها والمحمولة إليه » . أخرجه أحمد فى مسنده (٩٧/٢) وأبو داود فى سننه (٣٦٧٤) والحاكم فى مستدركه شاهداً وقال : ولم يخرجاه . والطبرانى فى الصغير (٢٦٦/١) .

(٢) « الأمر المتفق عليه عند العلماء أن المعتكف يحرم عليه النساء ما دام معتكفاً فى مسجده ، ولو ذهب إلى منزله لحاجة لا بد له منها فلا يحل له أن يثبت فيه إلا بمقدار ما يفرغ من حاجته تلك من قضاء الغائط أو الأكل وليس له أن يقبل امرأته ولا أن يضمها إليه ولا يشتغل بشىء سوى اعتكافه ولا يعود المريض لكن يسأل عنه وهو مار فى طريقه » انظر تفسير ابن كثير (٢٢٤/١) .

يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ﴾ ولم يقل : فلا تفعلوها ، ولكنه قال :

﴿ فَلَا تَقْرَبُوهَا ... (١٨٧) ﴾ [البقرة]

إذن : ففيما نهى الله سبحانه وتعالى عنه ؛ مطلوب من المسلم ألا يقرب منه ، أى : لا تكن أنت والشيء الذى نهى الله عنه فى مكان واحد ، بل عليك أن تبتعد عن المكان ؛ لأن المعصية لها إغراءات ، وما دمت بعيداً عن الإغراءات ؛ فأنت تعصم نفسك ، أما إن اقتربت منها فقد تقع فيها .

أما فى الأوامر ؛ فيقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ . وعلى سبيل المثال : إن نشأ خلاف بين الزوجين وفشلت كل محاولات الصلح بينهما ، يقول الحق سبحانه:

﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ... (٢٢٩) ﴾ [البقرة]

إذن : ففى الأوامر يقول الحق : ﴿فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ ، وفى النواهى يقول سبحانه : ﴿ فَلَا تَقْرَبُوهَا ﴾ .

وهنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها ينذر الحق سبحانه وتعالى الذين يحادون الله ورسوله فيقول :

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ ﴾ والإنذار هنا يتمثل فى أنه يوضح لهم أن ما ينتظرهم ليس هو العذاب الجسدى فقط ، ولكنه عذاب فيه خزى وهوان ، فمثلاً بعض الناس قد يتحمل ويتجلد أمام الألم حتى لا يشمت فيه عدوه ؛ لذلك

فالعذاب الذى يعدهم الله به فى الآخرة ليس أليماً فقط ، ولكن فيه خزى وهوان . ويتمثل الخزى فى أن المتكبر فى الدنيا يأتى إلى الآخرة ويهان أمام الخلق جميعاً ، ويكفى خزياً أن يكون فى النار . والمؤمنون الذين تكبَّر عليهم فى الدنيا يعيشون فى نعيم الجنة ، وتلك حسرة تصيبه ليس بعدها حسرة .

ثم يفضح الحق سبحانه وتعالى المنافقين فيقول :

﴿ يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾

والحذر معناه الاستعداد لدفع خطر أو ضرر متوقع ، وعلى سبيل المثال ؛ يقال لمن يسافر فى طريق محفوف بالأخطار : خذ حذرك وأنت تسير فى هذا الطريق . وهنا قد يصحب المسافر معه رفيقاً ، أو يأخذ معه سلاحاً يدافع به عن نفسه إن قابلته عصابة من قطاع الطرق . إذن : فالحذر هو الإعداد لدفع خطر أو ضرر متوقع .

ولكن إذا كانت السورة تتنزل من عند الله على رسوله فكيف يحذرون ويستعدون لنزول هذه السورة ؟

نقول : إن هذا استهزاء بهم ؛ لأنهم أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر ، ولأن آيات سابقة نزلت تفضح ما يخبئونه فى نفوسهم . فهم دائماً خائفون من أن تنزل آية جديدة تفضحهم أمام المسلمين .

الحق سبحانه وتعالى يريدهم أن يعرفوا أنه عليم بما فى نفوسهم ، ويخوفهم من أن تنزل آيات تكشفهم ، فهم يخشون أن يخرج ما فى بطونهم من كفر يخفونه ، وهو غيب عن المؤمنين . والغيب - كما نعلم - محجوب بزمان ومكان ، وغيب الزمان محجوب بالماضى أو بالمستقبل ، فإن كان هناك حدث قد مضى ولم تشهده ، فهو غيب عنك ما لم تعلمه من كتب التاريخ ، وكذلك إن كان هناك حدث سوف يأتى فى المستقبل ، فهو لم يقع بعد ، فهو إذن محجوب بالمستقبل ، أما حجاب المكان فهو حجاب الحاضر ، وعلى سبيل المثال : إن كنا الآن فى القاهرة فنحن لا نعلم ما يحدث فى الإسكندرية . والله سبحانه وتعالى هتك كل هذه الحجب فى القرآن الكريم ، فهتك الحق سبحانه حجاب الماضى فى أمثلة كثيرة أخبر بها رسوله ﷺ ، مثل قوله سبحانه :

﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [القصص]

وأيضاً يقول سبحانه :

﴿ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾

[القصص]

فكأن الحق سبحانه وتعالى قد كشف لرسوله من حجب الزمن الماضى ، ما لم يكن يعلمه أحد ، وذلك مصداقاً لقوله تعالى :

﴿ تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾ [هود]

وكشف الله سبحانه وتعالى - أيضاً - لرسوله ﷺ والمؤمنين حجاب الزمن المستقبل ؛ فقال :

﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلاَّهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ... (١٤٢) ﴾ [البقرة]

وهؤلاء السفهاء سمعوا الآية قبل أن يتساءلوا عن تحويل القبلة [(١)] ، ورغم ذلك تساءلوا عن تحويل قبلة الصلاة . وأيضاً قال الحق من أمثلة كشف حجب المستقبل :

﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥) ﴾ [القمر]

وقد نزلت هذه الآية والمسلمون يلاقون عذاباً شديداً من الكفار ، حتى إن عمر بن الخطاب قال : أى جمع هذا ؟ [(٢)]

وعندما حدثت غزوة بدر قال عمر : صدقت يا ربى : ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴾ .

وكذلك كشف الحق سبحانه وتعالى حجاب المستقبل حين قال : ﴿ غُلِبَتِ الرُّومُ (٢) فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (٣) فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (٤) بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٥) ﴾ [الروم]

أى : أن الله تبارك وتعالى أعطى نتيجة المعركة بين الروم والفرس قبل أن تحدث بسنوات طويلة ، وحدد الجانب المنتصر وهو الروم ، وكذلك أنبأ

(١) قال الزركشى : « السين هنا للاستمرار ؛ لأن ذلك إنما نزل بعد قولهم : (ما ولاهم) ، فجاءت السين إعلاماً بالاستمرار لا بالاستقبال » . انظر : البرهان فى علوم القرآن (٤/ ٢٨٠) .

(٢) ذكر ابن كثير في تفسيره وعزاه لابن أبى حاتم (٤/ ٢٦٦) عن عكرمة قال : لما نزلت : ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥) ﴾ قال : قال عمر : أى جمع يهزم ؟ أى جمع يغلب ؟ قال عمر : فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله ﷺ يثب فى الدرع وهو يقول : ﴿ سيهزم الجمع ويولون الدبر ﴾ فعرفت تأويلها يومئذ .

سبحانه وتعالى رسوله بما يحدث فى أعماق النفس . وما يدور فى صدور الخلق ، وساعة ما ينتهك حجاب النفس ، كأنه يوضح لكل إنسان : إن سِرَّك الذاتى مفضوح عند الله ، والمثال على هذا قول الحق سبحانه :

﴿ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ ... ﴿٨﴾ ﴾ [المجادلة]

هم قالوا فى أنفسهم ، ولو لم يقولوا لعارضوا ما أخبرهم به محمد ﷺ عما قالوه فى أنفسهم وأعلنوا أنه كذب . ولكنهم لم يُكذِّبوا رسول الله فيما أبلغ عن الله . وهذا يدلنا أيضاً على أن المنافقين كانوا فى حذر ، وكان يغلب على ظنهم صدق رسول الله .

والمثال هو قول الحق هنا : ﴿ يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِءُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [التوبة]

وإن كان البعض منهم قد استهزأ قائلاً : لا داعى أن نتكلم حتى لا يُنزل فينا قرآناً ، فالحق يُبلِّغ رسوله أن يرد عليهم: ﴿ قُلِ اسْتَهْزِءُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [التوبة]

وما تحذرون منه أيها المنافقون سيكشفه الله لرسوله وللمؤمنين.

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾

وإن سألتهم يا رسول الله: هل تناولتم الإسلام بسوء أو عيب فى مجالسكم ، فسوف يقولون : إن كان هذا قد حدث فهو مجرد خوض ولعب ، وكلام مجالس لا قيمة له (١).

والخوض أن تُدخلَ نفسك فى سائل ، مثل الذى يخوض فى الماء أو يخوض فى الطينَ ، وقد أطلق على كلِّ خوض ، ثم اقتصر على الخوض فى الباطل ، أى: أن المسألة لم تكن جدية بل كانت مجرد تسلية ولعب.

ويقول الله لرسوله: ﴿ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴾ أى: إذا قالوا لك : إن هذا حديث تسلية ولعب ؛ فاللعب هو أمر لا فائدة منه إلا قتل الوقت ، قل : أليس عندكم إلا الاستهزاء بآيات الله ورسوله وأحكام الإسلام تقتلون به الوقت ؟ فهل فى هذه المسائل خوض ولعب ؟

ثم يعطيهم الله الحكم:

﴿ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾

وهل سبق للمنافقين إيمان ثم جاء كفر ؟ لا ، ولكن قوله تعالى ﴿ قَدْ كَفَرْتُمْ ﴾ يعنى: أنكم أيها المنافقون قد فضحتم أنفسكم ؛ لأنكم كنتم تعلنون الإيمان فقط ، ثم أظهر الحق أن إيمانكم إيمان لسان لا إيمان وجدان.

(١) وذلك أن رجلاً من المنافقين فى غزوة تبوك قال : ما رأيت مثل قرائنا هؤلاء أرغب بطوناً ولا أكذب ألسناً ولا أجبن عند اللقاء ، يعنى رسول الله ﷺ وأصحابه . فقال عوف بن مالك : كذبت ولكنك منافق لأخبرن رسول الله ﷺ فذهب عوف ليخبره ، فوجد القرآن قد سبقه ، فجاء ذلك الرجل إلى رسول الله ﷺ وقد ارتحل وركب ناقته ، فقال : يا رسول الله إنما كنا نخوض ونلعب ونتحدث بحديث الركب نقطع به عناء الطريق . انظر: أسباب النزول -للواحدى ص ١٤٤ .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ إن نعف عن طائفة منكم نعذب طائفة بأنهم كانوا مجرمين ﴾ انظر إلى رحمة الله ، وكيف أنه - جَلَّ وعلا - لم يوصد باب التوبة أمامهم ، بعد أن كشف ما فى نفوسهم ، هنا يعلن له الحق أن الطائفة التى ستتوب توبة صادقة ، والتى لم تشترك فى هذا الخوض سيغفر لهم الله . أما الذين بَقَوْا على نفاقهم وإجرامهم - والإجرام هو القطع ، وجرمت الثمرة أى قطعتها ، وسمى إجراماً لأنه قطع حقاً عن باطل - أى الذين قطعوا واقعهم بقلوبهم وسلوكهم عن الإيمان ، فسوف يعذبهم الحق سبحانه .

﴿ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ
يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ
وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ
ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾

ثم يعود سبحانه وتعالى إلى الأحكام التكليفية ، وعادة تكون الأحكام التكليفية من الله كلها على الذكورة ، وليس فيها على الأنوثة إلا عدد قليل من الآيات مثل قوله تعالى:

﴿ يَا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن ... (١١) ﴾ [الحجرات]

وقوله تعالى:

﴿ من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى ... (٩٧) ﴾ [النحل]

أما باقى الأحكام فتنصبُّ على الذكورة ، وتدخل الإناث فى الأحكام لأن الأنوثة مبنية على السِّتْر فى الذكورة . ولكنه كان لابد هنا من ذكر المنافقين والمنافقات كل على حدة ؛ لأن للرجال مجالس ، وللنساء مجالس ، ولكل منهما أفعال وأقوال تختلف عن الآخرين . . ولذلك كان لابد من النص على المنافقات .

وقول الحق سبحانه : ﴿ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ ﴾ أى : لا يتميز أحد من المنافقين والمنافقات عن الآخر فى الخسة والقبح والفضائح ، ويحدد الله خصالهم فى قوله تعالى : ﴿ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ﴾ فهم إن فعل الناس معروفاً ينهونهم عنه ، بل إنهم يشجعونهم على فعل المنكر ، وهم لا ينفقون فى سبيل الله إذا طُلِبَ منهم الإنفاق .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ﴾ وهل يُنْسَى الحق سبحانه وتعالى بالفطرة ؟ لا ، ولكن المقصود أنهم نسوا مطلوبات الله وتكاليفه فنساهم الله أى أهملهم ، فمن يبعد عن الله يزده الله بُعْداً ، مصداقاً لقوله تعالى :

﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ... (١٠) ﴾ [البقرة]

فإن كنت مسروراً من أنك نسيت الله فسيزيدك نسياناً ، ويختم على قلبك فلا يخرج منه الكفر أبداً .

ثم يعطى الحق سبحانه الحكم : ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ وكلمة « منافق » - كما نعرف - مأخوذة من نفقاء اليربوع ، وهو حيوان يشبه الفأر ويسكن فى الصحراء ويحفر لنفسه نفقاً فى الأرض ؛ له بابان ، وإنْ ترصَّد له الصائد عند أحدهما خرج من الثانى ، وهكذا ترى أن المنافق له وجهان . والفسوق معناه الخروج عن منهج الطاعة ؛ وهو مأخوذ من «فسقت الرطب»

أى : انفصلت القشرة عن الثمرة. والقشرة - كما نعلم - مخلوقة لصيانة الثـمرة ؛ فإذا فسـقت عنها تلفت الثمرة . والإنســان إذا فسق خرج عن طاعة الله .

ثم يأتى الله بما أعدَّه للمنافقين فيقول :

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ (٦٨) ﴾

والوعد للخير والوعيد للشر ، ويقال : « أوعد » فى الشر ، وفى بعض الأحيان تستخدم كلمة « وَعَدَ » بدلاً من « أوعد » حتى إذا استمع السامع لها يتوقع خيراً . فإذا جاء الأمر بالعذاب كان ذلك أليماً على النفس. وهذا استهزاء بالمنافقين والكفار ، مثل قوله تعالى :

﴿ وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ ... (٢٩) ﴾ [الكهف]

كأن الله أعطاهم وعداً أنهم إن يستغيثوا سيأتيهم الغوث ثم يقلبه عليهم ويجعله ماء يغلى ويشوى وجوههم - والعياذ بالله - ونلحظ أيضاً أن الحق سبحانه قد قدَّم المنافقين والمنافقات على الكفار، وهذا يؤيده قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً (١٤٥) ﴾

[النساء]

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ ﴾

وهكذا نرى أن المنافقين موقعهم الدرك الأسفل من النار. والكفار موقعهم الدرك الأعلى ، وقد يسأل سائل : كيف يكون ذلك ؟

ونقول: إن الكافر بكفره قد أعطانا مناعة ؛ فلأنه أعلن الكفر فنحن نأخذ حذرنا دائماً منه ، فلا يلحق بنا إلا ضرراً محدوداً ، أما المنافق فهو قد تظاهر بالإيمان فأمناه ، ويستطيع أن يلحق بنا شرّاً رهيباً ؛ لأنه بحكم ما أخذه من أمان منا ، يعرف أسرارنا ومواطن الضعف فينا ، وقد تكون طعنته قاتلة.

والعدو الخفى - كما نعلم - شر من العدو الظاهر ؛ لأننا نكون على حذر من العدو الظاهر ، لكننا لا نأخذ الحذر من العدو الخفى ، وهو يعرف ما فى نفسى ، ويعرف كل تحركاتى ، ويستطيع أن يغدر بى فى أى وقت دون أن أكون متبهاً لهذا الغدر.

ولذلك إذا أراد قوم أن يكيدوا للإسلام دون أن يسلموا ، فكيدهم يفشل ؛ لأنهم وهم على الكفر سيجدون مناعة عند المسلمين من الاستماع إليهم . أما إن احتالوا ودخلوا على الإسلام من داخل المسلمين أنفسهم ، فهم يُجنِّدون عدداً من ضعاف الإيمان ليطعنوا فى هذا الدين ، وتكون طعنات هؤلاء المسلمين بالاسم ، هى القاتلة وهى المؤثرة.

هنا نلاحظ فى قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ ولم يقل الحق بالخلود أبداً فى النار إلا فى ثلاث آيات فقط فى القرآن الكريم.

في قـــوله تعـــالى : ﴿إلاَّ طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (١٦٩)﴾ [النساء]

وقوله عز وجل : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا (٦٤) خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لاَّ يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا (٦٥)﴾ [الأحزاب]

وقوله جل جلاله : ﴿وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا (٢٣)﴾ [الجن]

و لكنه ذكر الخلود في الجنة أبداً مرات كثيرة (١).

ونقـول: إن الجنة هي بُشْـرى النعـيم للمـؤمنين . ويريد الحق سبحـانه وتعالى أن يؤنس خلقه بالنعيم الذى ينتظرهم ، ولكن بالنسبة للنار فهى دار عذاب ، وتأبى رحمة الله وهو الخالق الرحيم بعباده ألا يُذكر الخلود في النار متبوعاً بكلمة أبداً إلا في ثلاث آيات ؛ حتى لا يظن الكفار أن الله سبحانه وتعالى بقوله : ﴿خَالِدِينَ﴾ دون ذكر الأبدية أنه خلود مؤقت في النار ؛ لذلك يُذكّرهم بأنه خلود أبدى . وفي نفس الوقت تأبى رحـمتـه سبحـانه وتعالى أن يكون ذلك في كل آية تُذكَر فيها النار ؛ حتى يفتح طريق التوبة والرحمة لكل عاصٍ ، عَلَّه يتوب ويرجع إلى الله.

والحق سبحانه يقول:

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ (١٠٦) خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ (١٠٧) وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ (١٠٨)﴾ [هود]

(١) ذكر الخلود في الجنة أبداً في ٨ مـواضع من القـرآن الكريم [النسـاء: ٥٧ ، ١٢٢] ، [المائدة: ١١٩] ، [التوبة: ١٢ ، ١٠٠] ، [التغابن: ٩] ، [الطلاق: ١١] ، [البينة: ٨] .

وثار الحديث بين المستشرقين : كيف يقول الحق سبحانه وتعالى عن النار والجنة خالدين فيها أبداً ؟ ثم يأتى فى هذه الآيات ويستثنى ويقول: ﴿إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ والاستثناء وارد على المؤمن والكافر ؟

ونقول: إن الذين يثيرون هذا الاعتراض لم يفهموا القرآن ولا المنهج ، فالذين سيدخلون النار قسمان : قسم آمن ولكنه عصى وارتكب سيئات ؛ فَيعذَّب فى النار على قَدْر سيئاته ، ثم يُخرجه الله من النار إلى الجنة لأنه مؤمن ، وقسم آخر كافر أو منافق ، الاثنان يدخلان النار ، ولكن أولهما - وهو المؤمن - يُعذَّب على قَدْر سيئاته . والثانى يبقى خالداً فيها لأنه كفر أو نافق .

إذن: فالمؤمن العاصى لا يخلد فى النار ؛ ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى: ﴿إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ لأنه لن يبقى فى النار إلا بقدر سيئاته ، فكأن خلوده فى النار من البداية مؤقت وهو لا يبقى خالداً فيها؛ لأن مشيئة الله سبحانه وتعالى تدركه ، فتخرجه من النار إلى الجنة .

أما الكافر والمنافق فهما خالدان فى النار لا يخرجان منها ، فكأن هناك من يدخل النار ولا يكون خلوده فيها أبديّاً ، وهذا هو المؤمن العاصى . وهناك من يدخل النار ويخلد فيها أبداً ، وهذا هو الكافر أو المنافق .

وإذا جئنا إلى الجنة ، فهناك من سيدخل فيها خالداً أبداً ؛ أى منذ انتهاء الحساب إلى ما لا نهاية . وهذا هو المؤمن الذى غلبت حسناته سيئاته وأدخله الحق الجنة . ولكن هناك من سيدخل الجنة ، ولكن خلوده فيها يكون ناقصاً وهو المؤمن العاصى ؛ لأنه سيدخل النار أولاً ليجازى بمعاصيه .

إذن : فالمؤمن العاصى خلوده فى النار ناقص ؛ لأنه لن يبقى فيها أبداً . وكذلك يفتقد الخلود فى الجنة فور انتهاء لحظة الحساب ؛ لأنه لن يدخل

فيها بعد الحساب مباشرة ، بل سيدخل النار أولاً بقدر معاصيه . فقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿إلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ ينطبق على عصاة المؤمنين الذين سيأخذون حظهم من العذاب أولاً على قدر سيئاتهم ، ثم بعد ذلك يدخلون الجنة (١) .

وقول الحق عن خلود المنافقين فى النار : ﴿ هِىَ حَسْبُهُمْ ﴾ أى تكفيهم ، كأن يكون هناك إنسان شرير وأنت تريد أن تؤدبه ، فيأتى إنسان قوى ويقول لك: اتركه لى ، أنا وحدى كفيل أن أؤدبه ، فتقول: هذا حسبه ، أى يكفيه هذا ؛ ليتم التأديب المطلوب . كذلك النار ، فسبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا إلى أنها تكفيهم ، أى : أن ما سيعانونه فيها من ألم وعذاب كاف جداً لمجازاتهم على ما فعلوه من سيئات .

ثم يقول الحق: ﴿ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ أى : طردهم من رحمته ومن طاعته فلا يقبل لهم توبة ولا عودة ؛ لأن مكان التوبة هو الدنيا . وأما ما بعد الموت والآخرة ، فلا محل فيهما لتوبة ولا رجوع عن معصية ؛ لأن زمان ذلك قد انتهى . لذلك فالعذاب لمن لم يَتُبْ فى الدنيا هو عذاب مقيم فى الآخرة .

﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ وقد وصف الحق عذاب جهنم مرة بأنه عذاب أليم ، ومرة بأنه عذاب مهين ، ومرة بأنه عذاب مقيم ؛ لأنه يريدنا أن نعلم أن كل أنواع العذاب ستصيب أهل جهنم ، فإن كان الإنسان مُتجلِّداً له

(١) قال ابن كثير فى تفسيره (٢/ ٤٦٠) : « هذا الذى عليه كثير من العلماء قديماً وحديثاً فى تفسير هذه الآية الكريمة » . وقد أضاف الإمام أبو يحيى الأنصارى معنى جميلاً فى كتابه : « فتح الرحمن بكشف ما يلتبس فى القرآن » ص ١٩٥ فقال : « هو استثناء من الخلود فى عذاب أهل النار ، ومن الخلود فى نعيم أهل الجنة ؛ لأن أهل النار لا يخلدون فى عذابها وحده ، بل يعذبون بالزمهرير ، وبأنواع أخر من العذاب ، وبما هو أشد من ذلك ، وهو سخط الله عليهم . وأهل الجنة لا يخلدون فى نعيمها وحده ، بل ينعمون بالرضوان ، والنظر إلى وجهه الكريم وغير ذلك » .

كبرياء يتحمل الألم الشديد ولا يُظهر ما يعانى ، فالعذاب لن يكون أليماً فقط ، ولكنه مهين أيضاً ، والهوانَ هو إيلام النفس ، وإن كان ذا كبرياء مُتجلِّد فإنه يُجَرُّ على وجهه ويُهَانُ . وبعض الناس قد يتحمل الألم ، ولكن لا يتحمل الإهانة التى تصيبه بعذاب نفسى أكثر من العذاب البدنى ، فقد تأتى لكبير قوم وتهينه أمام أتباعه، أو لأب وتهينه أمام أولاده ، ويكون هذا أكثر إيلاماً لنفسه من أن تضربه .

وقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ أى : عذاب دائم ، فإن كان أليماً يبقى الألم على شدته ولا يُخفَّف أبداً ، وإن كان مهيناً تبقى الإهانة مستمرة ولا تزول أبداً . وفى كلتا الحالتين هو عذاب فيه إقامة وفيه دوام واستمرار .

ثم يخاطب الحق سبحانه وتعالى الكفار والمنافقين ، ويقول جل وعلا للخارجين عن منهجه :

﴿ كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُواْ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾

وهنا يُذكِّرهم سبحانه بمواكب الكفر التى صاحبت الرسل السابقين ، وقد كانت هذه المواكب فيها المنافقون وفيها الكفار ، وسبحانه وتعالى عندما يرسل رسولاً يؤيده ضد أعداء منهج الخير .